يوسف كونراد ومذهبه الفنى

بقلم

حسن لطفى المنفلوطى

يمتاز يوسف كونراد من بين كتاب القصة الحديثة فى انجلترا باتساع فى أفق الخيال وقوة الذهن والاخلاص الفنى الكامل · ولا شك فى أن هذه المزايا هى التى حالت دون شهرته السريعة · وكان وما زال يعد كاتب الخاصة وان لم تنقصه الشهرة· وهو كاتب خالق مبدع ، انجليزى التبعية بولندى الأصل ، وقصصه فريدة فى الأدب الانجليزى ·

وحياته كانت مليئة بالتقلبات الغريبة · فقد ولد من أسرة بولندية فى مقاطعة أوكرانيا عام ١٨٥٦ · وكانت أوكرانيا مقاطعة بولندية وهى الآن من جمهوريات الاتحاد السوفيتى · وشب هناك فى وقت ساءت فيه القلائل والاضطرابات ، واشتد فيه النزاع على هذه المقاطعة بين روسيا وبولندا · وقد توفى والداه على أثر ما لقيا من تشريد ونفى سياسى · فكفله خاله ، وعنى بتربيته ، وأحضر له مربيا ممتازا يعده لدخول جامعة «كركاو» · ولكنه هوى البحر صغيرا ، وأراد أن يكون بحارا يجوب العالم على ظهر السفن · وبذل أهلوه كما بذل مربيه جهودا كبيرة فى سبيل نزع هذه الرغبة من نفسه ، ولكن دون جدوى · وأخيرا ترك بولندا وهو فى سن السابعه عشرة ، وكان على وشك دخول الجامعة ، وسافر الى مرسيليا ، ومن هناك ركب البحر لأول مرة ·

وقضى ثلاثين عاما يجوب البحر ، وصل فيها الى أعلى المراتب ، ونال الجنسية البريطانية · ثم أصيب بمرض اضطر من جرائه الى أن يترك البحر ويستقر فوق اليابسة بقية حياته ·

وحدث ان ارسل بعد وصوله الى انجلترا قصة أسماها مباذل الماير الى احد الناشرين ، وكان قد كتبها فى اوقات غريبة ، وعلى سنوات عدة ، ودهش عندما قبلها الناشر وطبعها فى عام ١٨٩٥ · ومن ذلك اليوم عاش حياة الكاتب الهادىء ، وهى

حياة لم تكن تبشر بها حياته الماضية • ولم يستطع كونراد نفسه أن يعرف ما الذى حرك فى نفسه الرغبة فى أن يصبح بحارا ، ثم كيف اصبح هذا البحار كاتبا قصصيا•

وكان نجاح قصته الأولى مفاجأة له ، فاستمر فى الكتابة ، واستطاع فى وقت قصير أن يحذق مبادىء الفن وأساليبه • وهذه المبادىء والأساليب هى التى استعملها فى حياته الأدبية بعد ذلك •

وتعد مقدمة كتاب « الأسود من النرجس » من أهم (ما كتب عن نظرية الأدب)

وخاصة من ناحية أثرها فى الفن القصصى الحديث • وهذه المقدمة تكشف عن الأهداف التى رمى اليها فى كتاباته ، والوسائل التى استعملها للوصول إلى هذه الأهداف •

وهو يبدأ مقدمته بتعريف واضح للفن ، مقارنا اياه بالفلسفة التى تعالج الأفكار، والعلم الذى يعالج الحقائق والنظريات ، ثم يصل الى نتيجته ويقول :

« ان الفنان لايلمس فينا جانب العقل والحكمة ، وانما يلمس فينا ذلك الجانب الموهوب ، ولذلك فأثره أبقى وأخلد • اذ هو يتحدث الى قدرتنا على السرور والتعجب، والى احساسنا بالعطف والشفقة ، والجمال والألم ، والى هذا الاحساس الكامن فينا الذى يربطنا ببقية البشر ••• هذا الرباط القوى الدقيق الذى يربط ملايين البشر فى أحلامهم وآلامهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، وفى الخوف والوجل ، والذى يربط الانسان بأخيه الانسان ، ويربط الانسانية كلها ، الميت بالحى ، والحى بالذى لم يولد بعد » •

ثم يتحدث عن القصة ويقول :

« انها تؤثر فى المزاج ان اعتبرناها فنا • وهذا ما يجب أن تهدف اليه ، فتشابه فى ذلك فنى الرسم والموسيقى وكذلك جميع الفنون الأخرى ••• انها تأثير مزاج واحد فى آلاف الأمزجة ••• مزاج فيه قوة طاغية ، يهب الحوادث الجارية معناها الحقيقى ، ويخلق من هذه الحوادث العظة والحكمة ، ويضفى على الزمان والمكان الجو ـ العاطفى • ويجب أن ينقل الينا هذا الأثر خلال الحواس حتى يكون فعالا • وفى الحقيقة لا يمكن أن ينقل الينا هذا الأثر الا بهذه الوسيلة ، لأن المزاج ، سواء أكان فرديا أم جماعيا ، لا يضخع لقوة الاقناع • فجميع الفنون تؤثر أولا فى الشعور • ولهذا ينبغى أن تهدف الكلمة المكتوبة التأثير على الشعور اذا كنا نريد أن نصل بها الى المنابع السرية للعواطف الايجابية • ويجب أن يطمع الكاتب فى أن يكون فى أدبه المرونة التى نجدها فى فن النحت ، والألوان التى نراها فى فن الرسم • وقدرة فن الموسيقى الايحائية • وهذا لا يتأتى الا بالاخلاص التام فى خلق مزيج كامل من الشكل والمادة ، وبالعناية التامة بتكوين الكلمات ورنينها، وباستعمال الضوء الايحائى العجيب الذى يضفى نورا على الكلمات العادية والألفاظ القديمة التى ضمرت وطمست معالمها بفعل الزمان وسوء الاستعمال » •

« والسبيل أمام كاتب النثر هو أن يسعى سعيا متواصلا الى الابداع والخلق ، سائرا فى هذا الطريق غير عابىء بالجهد والتعب ، أو النقد واللوم ، وان يكون جوابه على القارىء النفعى الذى يبحث فى القصة عما يستمد منه الشجاعة أو العزاء ، وعما يسليه أو يخيفه ، وعما يثير عجبه أو دهشته ، هو هذا : ان هدفى الذى أسعى الى تحقيقه هو أن أجعلك بقوة الكلمات المكتوبة تسمع وتشعر وفوق ذلك ترى ، وهذا كل شىء • فان نجحت فى ذلك ، فسوف تجد ما تريد من تشجيع وعزاء ، ومن خوف وتسلية ••• تجد كل ما تريد ، وتجد فوق ذلك شيئا أنت تنساه •••• تجد قبسا من الحقيقة » •

وكل قصة كتبها كونراد ان هى الا دليل على اخلاصه للمثل التى وضعها نصب عينيه ، وقد أراد أن يهب فن القصة ما فى فن النحت من مرونة ودقة وبروز • وجرت عادة كبار الكتاب أن يدرسوا شخوصهم دراسة دقيقة وافية • ويحاولوا تصوير مادرسوه بأن يقصوا القصة بضمير المخاطب أو الغائب • ولم يخرج كونراد فى ذلك عن تقاليد كتاب القصة ، ولكنه رأى أن طريقة العرض هذه لاتفى بما يريد من صدق فى التصوير ودقة فى الوصف • فاخترع شخصية « الكابتن مارلو » • ومارلو هذا رجل قد ترك سن الشباب ومارس الحياة وعركها ، ثم اعتزلها ، وان لم يفقد العطف على الانسان • ونجد هذه الشخصية لأول مرة فى قصة « اللورد جيم » ، فلا يحدثنا المؤلف ، انما يحدثنا مارلو عما رأى وسمع • وساعد هذا على بعث الدم الحار فى شخصية اللورد جيم ، وفى ابرازها • وان كنا نجد بعض الاضطراب فى هذه القصة فلأنها تجربة •

ثم خطا كونراد بعد ذلك خطوة أخرى فى قصة « فرصة » فاظهر لنا حوادث القصة وشخوصها معكوسة فى أكثر من ذهن واحد • فاستعمل أربعة قصاص • وهى طريقة يتجنبها أغلب كتاب القصة لما فيها من صعوبات ولما تحتاجه من عناية ودقة • وكان نجاحه فيها رائعا حتى ان القارىء لايحس بان المؤلف قد بذل جهدا ما • وهذه القصة عمل فنى رائع والشخصيتان الأساسيتان فيها « فلورا وكابتن انتونى » قد صورتهما يدان بارعتان • وهما أكثر من تمثالين ، فقد وهبا الحركة والاحساس وتحركا وسط عالم من الحقيقة •

ويعتمد كونراد فى أدبه اعتمادا كبيرا على الحواس ، ويثير خيال القارىء فيجعله « يحس ويسمع وفوق ذلك يرى » • وهو نحات ماهر فى تتبع الخطوط والمنحنيات ، وموفق فى اختيار ألوانه ، ودقيق فى وصف الصوت والذوق والرائحة ، ولذلك يتطلب من القارىء مجهودا وتركيزا وخيالا فى تتبع تفاصيل قصصه • فاذا استطاع القارىء أن يقوم بمثل هذا المجهود ، وجد أن هذه القصص فريدة ، وتركت فى نفسه من الأثر مالايحسه الا فيما رأى وسمع ، بل يشعر بأنها تجاربه الخاصة التى لاتزول ذكراها من نفسه سريعا •

ويعتبر كونراد مثل رائع للخروج عن القومية ، فلغة طفولته وشبابه كانت البولندية ، وظلت كذلك داخل نفسه الا اثناء العمل والدراسة ، فقد أخذت اللغة الفرنسية مكانها • وقد تاثر تاثيرا كبيرا بهذه اللغة وعاداتها الذهنية ، وتعلم أساليبه الفنية على يد أساتذة المدرسة الطبيعية الفرنسية • أما اللغة الانجليزية ، فقد تعلمها بعد ذلك واستعملها بعد نضجه ، وكتب بها مؤلفاته وقد أصبحت هذه اللغة بفضل موهبة نادرة قادرة على الاستيعاب في يده أداة طيعة للتعبير الأدبى • فمفرداته وتعابيره تكشف عن ثروة اللغة الانجليزية فى المفردات والتعابير أكثر مما تكشفها كتابات كبار الكتاب الانجليز أنفسهم ، وتدل على سروره بالكلمات وجزالتها . وعلى غرامه بأنواع الصفات ، كما تدل ع لى الجهود الكبيرة المضنية التى بذلها فى تعلمها والتدرب على الكتابة بها •

وقصصه تخلو من النقد ، فهو لايقترح اصلاحا ولا يحتضن مثلا ، ولا يوجه لوما الى أحد ، ولا يحبذ عملا ما • بل هو فنان لايخضع للحياة ، بل يخضعها له • ومن هذه الناحية يسمى كاتبا واقعيا ، ولكن واقعية كونراد أوسع مما اعتاد عليه أصحاب المذهب الطبيعى الذى تأثر به • فلم يكتف بتصوير حقائق الحياة السطحية بتفاصيلها الدقيقة • بل هو أكثر من ذلك • فقد وهبته حياة البحار القاسية ، والعيش بين المغامرين الذين يسعون الى الثروة ويتكالبون على جمعها بأى الوسائل ، ورؤية أساليب استغلال الانسان لاخيه الانسان ، وتجاربه بين مختلف الأجناس فى مختلف البلاد ، وهبه كل هذا اتساعا فى أفق التفكير وبصيرة فى ادراك الحقائق ، وفهما للقوى النفسية وأنواع الضعف الانسانى • كان يرتب أجزاء الحقيقة التى يختارها من هنا وهناك بشكل منظور ، ويربط بينها وبين الحياة بوجه عام •

وقد نجد فى قصصه شيئا من الغرابة والغموض والاحساس بالقدر • وهذا يرجع الى طبيعته الصقلبية • وأثر الأدب الروسى عليه • ولكن هذا لا يعنى أنه كاتب خيالى ، فهو يقدم لنا الحياة كما هى ، متبعا فى ذلك المدرسة الطبيعية الفرنسية مع تعديله لها • فلا تجد بين شخوصه أبطالا ، وقد رسم هذه الشخوص دون أن يحابى جنسا او لونا او طبقة اجتماعية • ولا يوجد بين هذه الشخوص المختلفة تشابه ، ولا يجمعهم شىء غير أنهم مضطرون جميعا الى الصراع ضد قوة ليست خيرة ، وهذه القوة حقيقة غير خيالية ، تؤثر فى حياة الانسان أينما كان •

ولا يظهر كونراد الانسان تعسا فى صراعه مع هذه القوة • بل على العكس من ذلك ، فقد رأى وهو بحار كيف يتحد البحارة ضد الرياح عندما تثور ، فيظهر هذا الاتحاد ما فى نفوسهم من عواطف نبيلة • وهذه القوة التى تجلب الشقاء على الانسان، انما تنشأ داخل الانسان نفسه ••• من طمعه ونهمه مما يجعله خائنا حسودا •

ويمكننا أن نقسم قصصه الى ثلاث مجموعات • تحتوى المجموعة الأولى على أربع قصص • تعرض الحياة فى جزر الهند الشرقية ، الى حيث رحل الانسان الابيض

بحثا وراء الثروة · تاركا خلفه فى بلاده غشاء المدنية الرقيق الذى كان يرتديه خوفا من القانون والمجتمع ، وتستبد به روح الجشع والطمع والاستهتار بكرامة الانسان وروحه · وهذه القصص هى : مباذل الماير ، والأسود من النرجس ، ومنبوذ الجزر ، واللورد جيم ·

وفى هذه المجموعة الثانية قصة واحدة وهى nostron o وتعد أفضل قصصه فى رأى بعض النقاد ، اذ هى ملحمة كاملة ، تعرض الحياة الحديثة حينذاك وما تميزت به من روح المادة والاستغلال · ونكاد نجد فيها جميع العواطف البشرية من نجاح واخفاق · ومن حب وبغض ـ ومن وطنية وأنانية · ونجد فيها أن مناجم «سنت توميه» هى رمز للقانون والنظام ، كما هى سبب للثورات والمآسى والبؤس والشقاء ، وقد خلق المؤلف فى هذه القصة جمهورية فى أمريكا الجنوبية وأسكنها بالرجال والنساء ، ففيها سكانها الأصليون ، وهم خليط من الاسبان والهنود الحمر ، كما فيها أوربيون من جنسيات مختلفة ، ألقت بهم المقادير الى ذلك المكان · ورجال آخرون جاءوا سعيا وراء الثروة · وتكشف القصة عما فى حياتهم من أحداث ومآس ·

والمجموعة الثالثة تضم أربعة قصص اهتم فيها المؤلف بالحياة فى أوربا ، وشخصياتها قليلة ، وهى كالعادة واضحة المعالم تدب فيها روح الحياة ·

وأخيرا نصل الى المجموعة النهائية وهى تضم قصتين وهما «فرصة ، وانتصار» · ونجد كونراد فى هاتين القصتين قد نضج فكره وزاد اهتمامه بمصير الانسان · وما زال واقعيا وما زالت ألوانه زاهية صادقة ، ومعالجته لموضوعاته معالجة بارعة ، ولكننا نجد فيها ظلالا قاتمة تشبه الظلال التى تلقى بها السحب على الأرض ، فتحجب الشمس ودفئها · ويتضح فى هاتين القصتين روح التشاؤم واليأس من الانسان لجشعه وطمعه ·

ولا يهتم كونراد بأثر هذا الطمع على الطامعين ، ولكن بأثره على غير الطامعين والأنانيين ، ويعتبر أن الشر هو القوى التى تحطم رباط الصداقة والمحبة بين الناس ، ويرينا أن مأساة الانسان هى أن يجد نفسه يعيش بين الناس وقد فقد الثقة بهم · وان كان الشر هو القوة التى تفرق بين الانسان وأخيه الانسان · فهناك قوى أخرى تقربهم وتلم شملهم ، وهى قوى المحبة والولاء والاخلاص ، والحاجة المشتركة أمام الخطر المشترك · ويظهر لنا كونراد فى هاتين القصتين داعيا يبشر بتآلف القلوب البشرية ·

وطبيعى أن تسود فلسفته تلك الروح الصوفية · فهو ابن رجل قد نفى سياسيا ومن شعب لاقى ألوان العذاب والاضطهاد على يد القياصرة الروس ، يحن الى الوحدة والتضامن ويكره الطامع والغاصب ويقول « ان من يقرأ قصصى يعرف

معتقداتى • فالعالم الزمنى يعتمد على أفكار بسيطة جدا تشبه فى قدمها الجبال ••• ويعتمد على فكرة الاخلاص » ولا شىء يثير اخلاص الانسان لاخيه الانسان ، ولو كان فى ذلك ثورة على العدالة •

وكتب هذا فى مذكراته «مذكرات خاصة» وكان مخلصا فى سرد ذكرياته ، فى هذه المذكرات عظيما فى وصفها وتحليلها • ينتقل بنا فيها من لندن العابسة الى سهول بولندا الفسيحة وقد غطتها الثلوج البيضاء ، ثم الى أنهار المناطق الاستوائية حيث تسود الحرارة وتنتشر الأمراض والحميات ، ثم الى مرسيليا حيث ركب البحر لأول مرة ، فتشاهد منازلها القديمة المتداعية ، ونرى حاجز المياه والأرصفة وقصر « ايف » كلها غارقة فى ضوء القمر الفضى •

وكتابه الاخير « خط الظلال » هو كتاب شيخوخته • ويعد بمثابة اعترافات وتجارب شخصية • وكتبه بلغة عامية على غير عادته • ويمتاز هذا الكتاب الأخير بالهدوء والحزن • وهو يحتوى على أفضل ما فى نفسه • ونرى من خلال حديثه الذى يتميز بالغموض روحا قوية لم تهزمها أحداث الزمان ، ونلمس فى وضوح عقيدته أن كل ما يمر بالانسان من آلام ، انما يزيد من قوته الروحية ، ما دام مؤمنا بتآلف القلوب البشرية •

ومات هذا الكاتب فى عام ١٩٢٤ • ودفن فى احتفال مهيب • ثم أسدل عليه ستار النسيان ، فلم يقدره الشعب الانجليزى حق قدره لأنه كان غريبا عنه بأحاسيسه وشعوره وبآماله وأفكاره • ولكنه ظل حيا بل تزداد قيمته يوما بعد يوم فى أنحاء العالم وخاصة فى الجامعات والاكاديميات والأوساط الثقافية وعند كتاب القصة ودارسيها ، وذلك لما فى أساليبه الفنية من قيمة كبيرة ولما لمذهبه فى القصة من أثر فى تطور القصة الحديثة •